٣

أنين

خيل إلى ، حين احتضنت المدرسة الخيرية طريفا ، وخصصت له مرتبه ، أن ضمير الزمان استفاق من وسنه ، فأقبل عليه يؤاسيه ، ويضمد جراح فؤاده ، ولكن أنى للدهر أن يستقر ، ويستمر فى إنصافه ، ما دام كالحسناء النفور صداً ووصالا ، وما دام كل ما يكسب الانسان من خير فى هذا الوجود يوقظ كامن الغيرة فى صدر أخيه ، ويحدوه غالبا الى اغتصاب هذا الخير أو اختلاسه من يده ولو قاده ذلك الى اقتراف الآثام .

فما كاد طريف يستمتع بفطوف ما أصاب من نجاح ، حتى انقلب أنسه وحشة ، وصفاؤه كدرا ، وتملكه يأس مرير ، يأس أظلم الدنيا فى قلبه كما أظلمتها الأيام فى عينيه ، يأس جعله يصعد كل يوم بعد فريضة الفجر ، الى مأذنة الجامع الكبير ، ويضرع من هنالك الى الله بجاه القرآن

المجيد ، الذى يحمله فى صدره ، وجاه نبيه المصطفى عليه السلام ، أن يرأب صدع نفسه ، وتفتت قلبه ، يأس حصر شعوره ، وفكره ، وخياله ، فى آفته المظلمة ، وأهاب به إلى أن يسائل نفسه آناء الليل ، وأطراف النهار ، عما جنت يداه حتى تذهب الأيام بنور عينيه ، وتعوزه فى كل أمر من أمور الحياة لعيون غيره ، بل عيون جبينه ويديه ورجليه ، يأس ، ما أكثر ما دعاه الى ان يردد : « يؤلم المبصرين يا الهى ، أن يمكثوا ساعة أو بعض ساعة فى مكان مظلم ، وها أنا أفنى أيامى كلها ، فى ظلمة الزمان ، والمكان ، رباه ! ما أظلم الظلام وما أمض حاجة الانسان إلى الانسان ، بل ما أشد لطفك بعبادك يا ربى ، وما أعظم رحمتك التى وسعت كل شىء ، فارحمنى يا الهى ! وابعث النور الى مقلتى ، حتى أرى وجهك ، واستغنى عن هؤلاء الرفاق الذين تألبوا علىّ بعد تفوق عليهم ، واستعصوا عن إسداء المعونة التى كانوا يسارعون إلى تقديمها إلىّ . »

بيد أن هذا اليأس القاتم فى نفس طريف استحال

أملا مشرقاً . وجوهاً يراها . ومناظر يبصرها . وكتبا بطرفة عين يلتهمها . بل دنيا جديدة يعيشها ويتملى منها ، حين علم أن طب العاصمة أقدر على شفائه من طب المدينة ، فأزمع الرحيل اليها ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ وهو لا يملك ما يبتاع به التذكرة

ان نور العين يباع فى هذا الوجود كما تباع النوى ويباع كل شىء من الأشياء التى خلقها الله للانسان . فاحتكرها الانسان من كله لبعضه . وأقام دونها العرف ، والقانون ووجدانه المدخول رتاجا . فتضاعف حزنه ، وأذكى أوار أمله ، أوار يأسه ، الى ان كان فى العاصمة . وأجمع أطباؤها على أن يد القدر رفعت عن عينيه يد الانسان ؛ فانصدع قلبه وغاض فى صدره ذلك الأمل الذى طالما دغدغ خياله ، ومناه بما تشتهي عينه من مرئيات .

إلا أن طريفاً ليس ممن يطيلون البكاء وراء أشلاء الأمانى وأشباح الأحلام ، فلما اقتنع بعجز الطب عن إحياء عينيه ، أذعن للواقع ، إذعان من يؤمن باللوح ، وحكمته ،

واعتزم أن لا يفكر منذ ذلك اليوم بأنه كفيف وبأن سواه مبصر ، كأن العمى . والابصار ، ليسا مظهرين من مظاهر الحياة ، وحقيقتين من حقائقها الخالدة ، ولكن أى ضرر فى ذلك ما دامت سعادة المرء فى هذه الدنيا فيما يعتقد وما يتوهم ، وما دام فى المدينة المفتونة بحب الغريب من الأفاضل ، من يضعون عيونهم ، وأفواههم بين أذنى طريف ، ومن الفاضلات من تأمر ابنتها بأن تترك المجين الذى بين يديها لتقرأ له ما يحمل من كتب ودفاتر ، بل ما دام طريف ناب من العاصمة براحة اليأس ، واستعاد بهجته الفقيدة ، فانطلق يجوب المدينة من أقصاها الى أقصاها ، فى عثرات الوحول ، وقصف الأنواء ، وعصف الرياح ، يستقرىء أحداثه ، ومعارفه ، فتنطبع أصواتهم فى حافظته انطباعا ، وينهج إذاء رفاقه ، كلما تعاونوا على اخفاقه نهج دهاء وفطنة ، فيجتذب اليه من يشرح لهم ما عسر عليهم من قواعد اللغة العربية ، والأجنبية ، ويقص التاريخ عليهم مقابل اشراكه فى دروسهم ، وتفهيمهم إياه نظريات الهندسة المسطحة

obeikandl.com

بخطوط وهمية يرسمونها بالأنامل على كفه؛ فاستطاع بذلك أن يحافظ على مكانته المرموقة فى المدرسة ، وعلى مرتبه مما أمض رفيقين اثنين من رفاقه كانا يطمعان فى مرتبه فلم يجدا بدًّا من اغلاظ القلوب عليه شأننا معاشر الشرقيين حيال المتفوقين منا فى شتى ميادين الحياة .

ولم يهتديا فى تلك البيئة الدينة الى سبيل أقرب تناولا لادراك غايتهما من وصمه (بالزندقة) ، فوصماه بها ، وانبثا فى أحياء المدينة يلفقان على لسانه ما يلفقان ، ويؤكدان لكل من يثق به ، ويدرأ عنه التهمة ، أن تقاه المتجلى الى حد التصوف لم يكن الا رياء ، دونه الكفر فى افساد الدين ، وهدم أركانه ، كأن قيام الليل ، وصيام الخميس والاثنين فى نظر ذينك الآفاكين من تعاليم ابن أبى بن سلول ، وكأن بذ الأقران أجل خطراً على شريعة مَنّ بذ الخلق ، واستقر فوق البشر ، ودون الله ، مِنْ نفسيهما الصغيرتين اللتين لا بد للمروءة أن تنتحر فى كنفهما ، وكنف أمثالهما ، من ذوى الأهواء لو لم يؤيدها الله فى كل زمان ، وفى كل

مكان برجال أكبر معدناً ، وأنبل مقصداً .

غير أن من يسمع يخل ، ولا بدع أن يؤمن أيضاً ، اذا كان قريب عهد بالضجة التى أحدثها فى الشعر الجاهلى ذلك الكتاب الذى كان اذ ذاك ملء الأفواه ، والأسماع ، وكان صاحبه يتصل آفة كابى العلاء بالمفترى عليه .

فآمن قسم متزايد من أهل المدينة بما افترى على طريف ، وانقلب ما كانوا يعلنون ، وما يسرون له ، من عطف واعجاب ، نفوراً واشمئزازاً كوّنا حوله جواً من الاضطهاد رهيباً .

على أن هذا الجو الخانق ، وأن أغص طريفاً ، وأوشك أن يقضى على مشاعره ومواهبه ، فانه لم يحل دون سحق غريميه ، بفضل من لم يخدع بالأراجيف من العلماء ، والوجوه ، والأساتذة ، والتلاميذ ، والشبيبة المثقفة . فاذا أساءت المدينة الى طريف عن طريق اثنين من أبنائها ، رفيقين من رفاقه ، ومن شاركهما سذاجة فى الافتراء عليه والوشاية به ، فقد أسدت اليه من المعروف ما لن يمحوه الدهر من قلبه

وضميره، كيف لا وهى التى أتت به من القرية، الى المدينة وأرسلته بعد نيله شهادة مدرستها الخيرية، الى كلية من كليات العاصمة، الى كلية، ان قلت فيها: إنها أسرة نبيلة فى كنف أب نبيل قلت صواباً. وان قلت: إنها مصنع الرجولة والأريحية قلت صواباً؛ وان قلت، إنها مشتل من مشاتل الوطنيـــــة، والدين، قلت صواباً، وان قلت إنها مأذنة العروبة التى من قلبها صوتها تنادى قلت صواباً، وان قلت إن بنيها جيش يتقدم إيماناً بالأرض، والسماء قلت صواباً، وإن قلت ان كل ما فيها خفقة من قلب مديرها الطبيب الأديب وإشعاعة من عقله قلت صواباً. فلا تعجب إن اجتذبت طلبة العلم، والدين، والوطنية من أقصى العراق شرقاً الى أقصى المغرب غرباً، وبثتهم فى مواطنهم بعد طبعهم بطابعها العربى الصميم رجال رسالة وجهاد. ونئن غمر مديرها الجليل طريفا بعطفه، ورعايته، فقد أمن — فى كنفه، وظل الكلية — أن يمكر به الزمان والانسان.